

من اللغة إلى الثقافة... عبر الكلمات
from language to culture... through words

منال محمد أسعد

المعهد العالي للغات في جامعة تشرين (سورية). manalassaad@yahoo.fr

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2024 / 12 / 01	2024 / 08 / 11	2024 / 07 / 19

مُلخَصُ البَحْثِ

لا يمكن التشكيك في العلاقة بين مفردات اللغة وثقافتها. فاللغة تنقل تمثيلاً معيناً للعالم وتعبر عن واقع يختلف حسب الثقافات. فهي ليست مجرد أداة للتواصل، لأنها تولد علاقات رمزية تشكل تمثيلات الناس ورؤيتهم للعالم. فاختيارنا للكلمات ليس عشوائياً، بل يعكس تفكيرنا والعالم الذي نعيش فيه. تعبر اللغات عن الأشياء نفسها بطرق مختلفة. وللوصول إلى الثقافة، تُعد اللغة أفضل وسيلة لأنها في الوقت نفسه ناقل ونتاج ومنتج للثقافات. يهدف البحث إلى التأكيد على ضرورة العمل على المفردات لتقديم الثقافة اليومية بهدف رفع مستوى الوعي بغياب الحدود الواضحة بين اللغة والثقافة، وذلك من خلال أمثلة توضّح هذه العلاقة الوثيقة بين اللغة والثقافة.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الثقافة، التثاقف، الكلمات المشحونة ثقافياً، القاموس الثقافي.

Abstract

The relationship between a language and its culture cannot be questioned. Language conveys a representation of the world and expresses a reality that differs according to cultures. It's not just a tool for communication, because it generates symbolic relationships that shape people's representations and worldviews. Our choice of words isn't random, but rather reflects our thinking and the world in which we live. Languages express the same things in different ways. To reach culture, language is the best means because it's a transmitter, product, and producer of cultures. The research aims to emphasize the necessity of working on vocabulary to present everyday culture, through examples that illustrate this close relationship between language and culture.

keywords: Language, Culture, Acculturation, Culturally Charged Words, Cultural dictionary.

1. مقدمة:

تُشكّل اللقاءات بين الثقافات، سواء كانت بين الأفراد أو بين المجموعات، جزءاً من حياتنا اليومية. فلم يعد "الأخر" هو الأجنبي الذي يعيش في مكانٍ آخر، إنه حاضرٌ معنا، يفرض نفسه علينا. إنّ الآخر هو الشخص الذي لا ينتمي إلى مجموعتنا، إلا أنه موجودٌ، قريبٌ جداً، إنه بيننا. ولذلك فإنّ التواصل بين الثقافات يؤثر على الجميع، ولا أحد بمنأى عن تأثيره. ومع موجات الهجرة اعتباراً من النصف الثاني من القرن العشرين، اهتمت العلوم الاجتماعية بمسألة العلاقة بين الثقافات وتأثيرها على الفرد والجماعات والمجتمعات. إذ إنّ التغييرات التي يحدثها التواصل بين الثقافات ليست مجرد تقاربٍ أو إضافةٍ. ففي الانتقال من ثقافةٍ إلى أخرى هناك ما يسمّى بعمليات التثاقف. وكان عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي باول J. W. Powell أول من قام بتعريف التثاقف في عام 1880، وطوّره ليأخذ في الاعتبار التحولات الثقافية للمهاجرين الذين يعيشون في المجتمع الأمريكي. فالتثاقف يشمل تلك الظواهر التي تنتج عن اتصالٍ مباشرٍ ومستمر بين مجموعاتٍ من الأفراد ذوي ثقافاتٍ مختلفة، مما يؤدي إلى تغييراتٍ كبيرةٍ في الأنماط الثقافية لإحدى المجموعتين أو كليهما. فالمجموعات البشرية لا تعيش معزولةً عن بعضها بعض. وعلى مرّ التاريخ، وخاصةً اليوم في عصر العولمة، ينتقل الأفراد أو العائلات من بلدٍ إلى آخر، قريبٍ أو بعيدٍ، مؤقتاً أو دائماً... ينتقلون جميعاً وينقلون معهم ثقافتهم. ويتواصلون مع الآخرين، مما يولّد حتماً تأثيراتٍ ثقافيةً ويقود بالضرورة إلى تغييراتٍ ثقافيةً.

يتحدّث علماء الأنثروبولوجيا عن التثاقف للإشارة إلى هذه العملية التي من خلالها تتكيف مجموعةٌ بشريةٌ مع أخرى، وتستوعب بعض قيمها الثقافية. هذا ما يحدث مع المزارعين الذين يستقرون في المدن، وسكان المدن الذين يهاجرون إلى الريف، على سبيل المثال... يجد الجميع أنفسهم في مواجهة ثقافةٍ جديدةٍ يجب عليهم اكتشافها واستيعابها. وفي مواجهة مجموعات الأغلبية، يتعلق الأمر بالقبول، وتبني أفكارٍ جديدةٍ وحتى سلوكياتٍ جديدةٍ... وبعد فترةٍ معينةٍ (جيلٌ واحدٌ أو أكثر)، ربما يصل البعض إلى حدّ نسيان لغتهم الأصلية و"الاندماج الكامل" في المجتمع المضيف أو المجموعة المضيفة. ولكن في أغلب الأحيان، يظل الارتباط بجوانب معينةٍ من الثقافة الأصلية حقيقياً، حتى أنه يستعيد قوته – سواء كانت هذه الصحوّة مرتبطةً بالطريقة التي يتعرف بها ما يسمى بالسكان الأصليين على الوافدين الجدد أم لا... وتحدث اختلاطاتٌ، فالتثاقف لا يجري في اتجاهٍ واحدٍ... وهذه الاختلاطات لا تخلو من التوترات بلا شك...

يهدف هذا البحث إلى التأكيد على أهمية العلاقة بين اللغة والثقافة حيث أنّ إتقان لغةٍ ما، قواعدهما وتصاريق أفعالها وطريقة نطق كلماتها، الخ، ليس كافياً لفهم حوارٍ من الحياة اليومية أو فهم نصّ مكتوبٍ أو الوثائق الإعلامية، الخ. إذ قد تحتوي هذه الأنواع من الخطاب على دلالاتٍ ثقافيةٍ قد تجعل من المستحيل على الأجنبي فهمها. ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث الذي يتناول هذه العلاقة المتينة التي لا يمكن فصم عُراها بين اللغة والثقافة، وبشكلٍ خاص بين مفردات اللغة والثقافة المرتبطة بها من خلال عرض أمثلة من الحياة اليومية بين اللغة الفرنسية واللغة العربية على سبيل المثال لا الحصر.

2. العلاقة بين اللّغة والثّقافة:

يعرض علماء الأنثروبولوجيا بوضوح العلاقة التي لا تنفصم بين اللّغة والثّقافة. تعتمد فرضية وورف وسابير Sapir/Whorf للنسبية اللغوية على فكرة أنّ كل لغة تنقل تمثيلاً معيناً للعالم وأنّ مفرداتها تعبر عن واقعٍ مختلفٍ من ثقافةٍ إلى أخرى. ويقول كلود ليفي شتراوس C. Lévi-Strauss إنّ العلاقة بين اللّغة والثّقافة تعتبر من أكثر المشاكل تعقيداً. يمكننا أولاً أن نتعامل مع اللّغة باعتبارها نتاجاً للثقافة؛ فاللّغة المستخدمة تعكس الثقافة العامة للسكان. ولكن بمعنى آخر، اللّغة جزءٌ من الثقافة؛ فهي تشكّل أحد عناصرها من بين عناصر أخرى. لكنّ هذا ليس كلّ شيء: يمكننا أيضاً التعامل مع اللّغة كشرط للثقافة (Lévi-Strauss, 1958).

كما ركّزت أبحاث غريماس Greimas وبارت Barthes على مفهوم الثقافة، حيث نجد أنّها لغةٌ مكونةٌ من أشياء تشكل أنظمة منظمة من العلامات. ومن هذا المنظور، فإنّ الكلمات هي علامات لها بالتأكيد وظيفةٌ طبيعيةٌ في اللّغة ولكنها في نفس الوقت إشاراتٌ ثقافيةٌ لا بل إنّ لها وظيفةً أسطوريةً أي أنّ لها قيمةً خاصةً في الثقافة، مثل النبذ أو سباق فرنسا للدراجات في فرنسا. وتحدث ر. غاليسون R. Galisson (1991) عن لعبة التكمال¹ بين اللّغة والثّقافة وضرورة عدم الفصل بين دراسة الثقافة ودراسة اللّغة، والعكس صحيح. وفي هذا السياق، ينبغي أن ننظر إلى الجانب الثقافي الذي تحتويه مفردات كلّ لغة بشكلٍ مختلف. ومن الضروري إعادة تفسير حذرة للعلاقات بين المفردات والثّقافة فالمفردات لا تُترجم الظواهر الثقافية بشكلٍ مباشرٍ.

تعدّ الكلمات أماكن متميزةً لاختراق المحتوى الثقافي الذي يتسلّل بشكلٍ غير محسوسٍ ويستقرّ ويعدّل، حتى من دون معرفة المتكلم، البعد الدلالي للكلمات. ومن هنا تأتي ضرورة إدخال البعد الثقافي للمفردات في تدريس اللغات الأجنبية. وإلا فإنّ المتعلم يرجع إلى منظومته الثقافية الخاصة التي تضلله حتى بكلمات تبدو بسيطة لغوياً مثل "الجبن" أو "الجزر".

في الواقع، يواجه المتعلم مهمةً مزدوجةً: إذ يتوجّب عليه معرفة المعاني الدقيقة للكلمات ووظيفتها وأيضاً القدرة على استخدام الكلمات بشكلٍ صحيحٍ في سياقاتها الصحيحة. ولضمان الاستخدام الصحيح لها يبدو أنّ الكفاءة الثقافية وكفاءة التداخل الثقافي ضروريةٌ لضمان هذا "الذهاب والإياب" بين المعاني الثقافية المختلفة التي يمكن أن تنقلها الكلمات. تُعرّف الكفاءة الثقافية بأنها "مجموعةٌ من المهارات التي تتيح تفسير شبكات المعاني الضمنية، التي يتم من خلالها قياس الانتماء إلى مجتمعٍ ثقافي ما والاندماج فيه. وهذا يعني أنّها تستند على معرفة متعمقةٍ إلى حدّ ما بالقواعد الاجتماعية والثقافية المختلفة التي تحكم الحياة الجماعية لمجموعةٍ اجتماعيةٍ ما.

فاللّغة هي أكثر من مجرد أداة للتواصل، لأنّ لها قدرةً لانهائيةً على توليد علاقات قوةٍ رمزيةٍ تشكل تصورات الناس ورؤيتهم للعالم. فاختيار الكلمات ليس محض صدفةٍ فهي انعكاسٌ لتفكيرنا الذي تحدده عمليةٌ تاريخيةٌ وثقافيةٌ، والعالم الاجتماعي والسياسي الذي نعيش فيه. وتلبي مفردات اللّغة احتياجات التواصل للأفراد الذين يتشاركون نفس التجربة في وقتٍ محددٍ. وقد أثبت اللغويون، من خلال الأبحاث التي أُجريت على مجموعاتٍ سكانيةٍ مختلفةٍ جداً، أنّ اللغات تعبر عن نفس الأشياء بطرقٍ مختلفةٍ، وأنّ كل لغةٍ هي نتاجٌ، وفي نفس الوقت شرطٌ، لتصور العالم. ولذلك فإنّ هناك ارتباطاً عميقاً بين اللّغة والثّقافة. إذ لا يمكن لإحدهما أن

توجد بمنأى عن الأخرى. فالثقافة تعبّر عن نفسها، وتخلق المعاني من خلال اللغة، وكلّ لغةٍ تتجلى في نفس الوقت الذي تظهر فيه ذاكرة هذه الثقافة والتعبير عنها.

وفي مجال تعليم وتعلم اللغات، يكون التركيز بشكلٍ عام على إتقان اللغة، فلا تؤخذ الصعوبات ذات الأصل الثقافي في الاعتبار، مما يؤدي إلى العديد من حالات سوء الفهم. ولا بد من الإشارة إلى ثلاث حالاتٍ يبدو أنها مصدرٌ لعددٍ من الأخطاء: ألا وهي الدلالات والمحظورات والخلفية الثقافية²:

• الدلالات connotation:

يمثل فهم التداخل الضمني صعوبةً كبيرةً، إذ يمكن له أن يعمل على مستوى التعبير ومستوى الفهم؛ (صباح الخير bonjour ومرحباً salut، على الرغم من أنها مترادفةٌ في اللغة، إلا أنّ لها استخداماتٍ مختلفةً في الكلام).

• المحظورات tabous:

يُستخدم عددٌ من الدلالات في اللغة الأم من دون مشكلة، ولكنّ يتمّ تجنّب الدلالات المقابلة لها في اللغة الأجنبية؛ فالحديث عن دور العجزة في بعض البلدان الآسيوية غير مقبول لما للشخص المسنّ من قدسيّة واحترامٍ في ثقافات هذه البلدان.

• الخلفية الثقافية arrière-plan culturel:

بعض الدلالات ترجع إلى خلفياتٍ ثقافيةٍ مختلفةٍ. بالنسبة إلى سكان إحدى قبائل شمال أفريقيا، يرمز البطن للوعي، ويرمز الأنف للحياة.

ولهذا يمكن أن يتم استبعاد الأجنبي، رغم أنه تعلم اللغة والحضارة الفرنسية بشكلٍ جيدٍ جداً، من محادثةٍ بين الفرنسيين، ويجد نفسه في صعوبةٍ أمام عنوان صحيفةٍ أو رسالةٍ إعلانيةٍ، وقد لا يتمكن من فهم الكلمات التي تبدو بسيطةً في أحد البرنامج تلفزيونية. إنّ المرجعية الثقافية راسخةٌ في ذاكرة الفرنسيين لدرجة أنه من غير المجدي ذكرها أو تسميتها. فهي مفهومةٌ ومشاركةٌ ومقبولةٌ من قبل جميع أفراد المجتمع الذي تُستخدم فيه.

وللوصول إلى الثقافة، فإنّ أفضل وسيلةٍ هي اللغة، لأنها، كما يوضّح غاليسون³، هي في نفس الوقت "الناقل" و"النتاج" و"المنتج" لجميع الثقافات:

- اللغة هي ناقلٌ وأداةٌ للثقافة، فهي تسمح للأفراد بالتعرّف على بعضهم بعضٍ وإظهار انتمائهم إلى نفس المجموعة الاجتماعية. وهي وسيلة الأدب والعلوم والطقوس والأساطير والسلوكيات...
- اللغة هي نتاجٌ للثقافة. فهي تتطوّر وتكتسب قيماً جديدةً وكلماتٍ جديدةً من أجل الاستجابة للاحتياجات المحيطة بشكلٍ عام. تتكيّف اللغة مع الثقافات وتطوّرّها عبر الابتكار المستمر للمصطلحات الجديدة...
- وأخيراً، اللغة تنتج الثقافة، فمن خلال اللغة تتشكل التمثيلات الجماعية والمواقف الجماعية أو تتغير. وبعبارةٍ أخرى، لا يتم إنتاج الثقافة مسبقاً، بل يتم بناؤها بمساعدة اللغة.

3. الكلمات المشحونة ثقافياً...

وهذا يقودنا إلى أن نفهم بشكل أفضل سبب تشبّع اللغة بالثقافة، وبالتالي السبب الذي يجعل تدريس لغةٍ من دون ثقافتها، أو حتى ثقافة من دون لغتها، يمثل مشكلةً كبيرةً. فاللغة مشبعةٌ بالثقافة باعتبارها ممارسة اجتماعية ونتاجاً اجتماعياً وتاريخياً. وبالتالي، سيواجه الفرد مشكلةً ثقافيةً، عندما لا يكون لديه مرجعٌ ثقافي للغة الهدف في اللغة المصدر. إنّ هذه "المسلّمات غير المرئية" *évidences invisibles*⁴ هي أصل سوء الفهم في التبادلات الاجتماعية بين الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات. إذ تُظهر التجربة أنّ معظم حالات سوء الفهم والتفسيرات الخاطئة تعود إلى العناصر الاجتماعية والثقافية بشكلٍ عام.

ويمكن تقديم العديد من الأمثلة حول هذه النقطة: وهكذا، حيث أنّ الفرنسيين لديهم كلمةٌ واحدةٌ فقط للإشارة إلى الثلج، هناك مصطلحاتٌ عديدةٌ في لغة الأسكيمو. وهذا مثالٌ بسيطٌ يثبت الارتباط الوثيق لكل لغةٍ بالثقافة والمجتمع. في الواقع، من مجتمعٍ إلى آخر، لا تعبّر اللغة عن الواقع بنفس الطريقة، فكلمة "بقرة" تشير، في الهند كما في بلدانٍ أخرى، إلى أنثى الثور⁵، لكنّ دلالاتها الثقافية تختلف من بلدٍ إلى آخر: في الهند، تتم حمايتها لأنها مقدّسة، بينما في بلدانٍ أخرى تُستخدم لقيمتها الغذائية أو فائدتها في الحراثة، الخ.

في أية لغةٍ، هناك كلماتٌ مشحونةٌ ثقافياً ويصعب ترجمتها، وهي تشير إلى حقائق محددةٍ جداً. وبشكلٍ عام، لا يمتلك المتعلمون المعرفة اللغوية الإضافية أو الرمزية المرجعية الكافية لفهم الواقع. لذا من المهم ألا نعتبر أنّ اللغة هي مجرد عناصر لغوية، بل هي ناقلٌ للثقافة والتمثيلات التي لدينا عن الآخر والثقافات الأخرى. ولكنّ عن أية ثقافةٍ نتحدّث؟ وما علاقة الثقافة باللغة، وبشكلٍ دقيقٍ أكثر، ما علاقة الثقافة بمفردات اللغة؟

هذا نقاشٌ واسعٌ يتعلق بمجموعةٍ كاملةٍ من العلوم، من الفلسفة إلى الأدب، بما في ذلك علم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وما إلى ذلك. وفي هذا الصدد، يمكن لأبحاث غاليسون وتأمّلاته التي طوّرها لتدريس اللغة الفرنسية كلغة أجنبية، أن تكون ذات فائدة كبيرة في أخذ المفردات بعين الاعتبار في سياق تدريس اللغة والثقافة المرتبطة بها.

في كتابه "من اللغة إلى الثقافة عبر الكلمات"، يدعو غاليسون إلى إعادة النظر في المفردات التي أهملت في التدريس لفترةٍ طويلة. ويقول إن الغرض من عمله مزدوجٌ:

- "إعادة النظر في إدراج المفردات في تعليم/تعلم اللغات... والثقافات؛
 - دمج اللغة والثقافة في التعليم/التعلم. وهذا بفضل المفردات القادرة على لعب دور الجسر بين اللغة المشبعة بالثقافة والثقافة كنتاجٍ للغة.
- وفي هذا السياق، يكون لمفهوم "الشحنة الثقافية المشتركة" قيمةً عمليةً كبيرةً. وهذا أيضاً ما يسميه باحثون آخرون "التمثيلات".

ويجب التأكيد على أنّ "الثقافة المكتسبة" (الأدب والتاريخ والفنون الجميلة والموسيقى وغيرها) الخاصة بشعبٍ أو مجموعة شعوبٍ، ليست هي التي تطرح مشكلةً؛ إذ من السهل إيجادها مدوّنةً في الكتب المتخصصة

والموسوعات وحتى القواميس الموسوعية. من ناحية أخرى، وهذا ما يوضحه كتاب غاليسون تماماً، نادراً ما نجد في القواميس أثراً لهذه "الشحنة الثقافية المشتركة"⁶ الراسخة بقوة في الواقع اليومي والعقلي والسلوكي للمجتمع، هذه الشحنة الثقافية المشتركة التي تُعد عاملاً وفي الوقت نفسها نتاجاً مميزاً للهوية الجماعية. وكما يقول جان كلود بيكو⁷ J.-C. Beacco، إنَّ المعنى الثقافي للكلمات معينة لا يمكن إيجاده في القاموس، بل يتم التفاوض عليه من مجموعة إلى أخرى. وعلى غرار اللغة، فإنَّ هذه الشحنة الثقافية المشتركة تتطور باستمرارٍ، ومن الصعب فهمها لأنها تختلف باختلاف العمر والأصل الاجتماعي الثقافي والجغرافي للمتحدثين.

الفكرة الأساسية لـ غاليسون⁸ هي وضع قاموسٍ للشحنة الثقافية المشتركة التي تدلّ على القيمة المضافة إلى المعنى العادي للكلمات، وهي تنتهي إلى المجموعة بأكملها، وتحكم معظم مواقف السكان الأصليين، وسلوكياتهم، وتمثيلاتهم، وعاداتهم من دون أن يفهموا آلياتها.

وبالفعل، إذا كان من الممكن أن نميز في أية كلمة بين نوعين من المعنى، الدلالي والضمني، فهناك كلمات أو تعابير تحمل مضامين ثقافية أكثر من غيرها. يقول غاليسون عن هذه الكلمات، وخاصة المشبعة بالثقافة، أنها كلمات تحمل "شحنة ثقافية مشتركة" أي قيمة مضافة لمعناها العادي ويفترض أن جميع الكلمات التي تحتوي عليها معروفة لجميع المتحدثين الأصليين. وإذا كان الهدف هو إيصال المتعلمين إلى الكفاءة التواصلية في لغة أجنبية، فيجب أن يكون لهذه الكلمات مكانها في التعليم.

وبما أن الثقافة المشتركة لا يمكن وصفها، بل يتم تجربتها، لذا لا يتم تدريسها. إنها جزء من الطريقة التي نتصرف بها ونرى ونشعر بالعالم يوماً بعد يوم. فرضية غاليسون هي أن هذه المضامين الثقافية المشتركة التي اكتسبها السكان الأصليون خارج المدرسة يمكن، بفضل الوسائل المناسبة، أن يكتسبها الأجانب في المدرسة أو أثناء تعلمهم للغة أجنبية ما. وفي الواقع هذا هو الحل الوحيد. ويجب أن يكون الهدف فهم ثقافة اللغة الأجنبية وليس اكتسابها.

يمكننا أيضاً أن نقول بأنَّ الكلمات المستعارة من لغاتٍ أخرى، والألفاظ الجديدة، والكلمات "العصرية"، وغيرها، تشكل أثراً لأحداث اجتماعية معينة، راهنة أو ماضية. وبالتالي فإنَّ استعارة المفردات من اللغات الأخرى هي مؤشرات على العلاقات بين الثقافات، والتي يجب ربطها بالظروف السياسية و/أو الهيمنة الثقافية التي جعلتها ممكنة. وهنا يمكن الحديث عن "العمق التاريخي للكلمات"⁹، أي الكلمات التي احتفظت بآثار ثقافية، فهذه الكلمات شاهدٌ على حقائق الحضارة، فالكلمة تمثل بلا شك مكاناً متميزاً للثقافة في اللغة: إذ يتم التعبير عن البيئة، والممارسات الاجتماعية، والتقنيات، والمؤسسات، ومعتقدات السكان من خلال الكلمات¹⁰ (collaborateur, camarade).

Collaborateur: الشخص الذي يتعاون في عمل مشترك. مثال: المساهمة في مجلة علمية.

/هذا ما نجده في قواميس اللغة الفرنسية/. ولكن إن بحثنا في التاريخ، سنجد أن هذه الكلمة ترتبط في وعي الشعب الفرنسي بفترة الحرب الألمانية الفرنسية، أي أن هذه الكلمة تشير إلى كل فرنسي كان مؤيداً للتعاون مع الألمان أثناء الاحتلال.

Camarade: مصطلح الرفيق يعني عموماً "رفيق" أو "زميل" أو "حليف"، وهو مشتق من المصطلح الإسباني والبرتغالي camarada، الذي يعني حرفياً "رفيق الغرفة". قد يعني أيضاً على وجه التحديد رفيق السلاح.

أما في السياقات السياسية، يعني الرفيق زميلاً عضواً في الحزب، وعادةً ما يكون يسارياً. كان الاستخدام السياسي مستوحى من الثورة الفرنسية، وبعد ذلك تطوّر ليصبح شكلاً من أشكال الخطاب بين الاشتراكيين والعمال. منذ الثورة الروسية، غالباً ما ربطتها الثقافة الشعبية في الغرب بالشيوعية.

ويشكل توضيح القيم الضمنية للغة طريقاً للوصول إلى هذه الثقافة المشتركة التي تخلق شعوراً بالانتماء إلى مجموعة ما. ونحن في ذلك نأخذ في الاعتبار القيمة المضافة للكلمات من خلال الاستخدام، وهي قيمة لا تأخذها القواميس بعين الاعتبار. وهي تشكل عقبة رئيسية أمام التواصل بين السكان الأصليين وغير الأصليين. والواقع أنّ الثقافة الضمنية، وغير المذكورة (صراحةً)، تسبب للأجانب مشاكل كثيرة بقدر ما هي صعبة.

4. قاموس لغوي أم قاموس ثقافي؟

وبما أنّ جميع الكلمات لا تحمل بشكلٍ منهجي مضامين ثقافية من هذا النوع، يتحدث غاليسون¹¹ عن الشحنة الثقافية المشتركة لبعضها. لا يتحدد المعنى الثقافي لبعض الكلمات في القاموس: بل يتم التفاوض عليه من مجموعة إلى أخرى. ولكن هل يستطيع الأجانب العثور على معلومات مفيدة في قواميس اللغة لممارسة مهارات الاتصال؟ الجواب سلبي للأسف، لأنّ القواميس لا تمثل سوى جزء من الاستخدام. ويؤكد غاليسون على حقيقة أنّ القواميس لا تهتم بالاستخدام ولا بالتمثيلات الثقافية الشعبية المشتركة بين معظم الناس بغض النظر عن المستوى التعليمي للمتحدثين¹².

هذه المعرفة، التي يتم اكتسابها يومياً والتي تتقاسمها الغالبية العظمى من الشعب، لا تغطيها المدرسة؛ ولهذا السبب بالتحديد فهي تستحق الدراسة والبحث. تساهم الكلمات المشحونة ثقافياً في مجمل المعرفة العامة التي يتقنها المتحدثون الأصليون ضمناً، مما يؤثر على مواقفهم وسلوكياتهم. لكنها ليست مُمَهِّرةً أو مشروحةً أو مدوّنةً في أيّ مكانٍ. ولهذا فإنّ فكرة وضع قاموس لهذه الكلمات المشبعة بشحنة ثقافية مشتركة تنبع من اهتمام مزدوج: من جهة، إدراك الدور الذي يلعبه استيعاب الثقافة الشعبية في اندماج الفرد في المجموعة الاجتماعية الغريبة عليه؛ ومن ناحية أخرى، اكتشاف فجوات في قواميس اللغة من حيث المعلومات المتعلقة بهذه الثقافة التي لا تحظى بالاهتمام، وبالتالي غياب المصادر في هذا المجال، سواء للمعلمين أو للمتعلمين¹³. ومن هنا تأتي أهمية وضع قاموسٍ ينظّم هذا النوع من البيانات الأساسية، لأنها تشكل الثقافة المشتركة التي تحدد، إضافةً إلى إتقان اللغة المشتركة، انتماء الأفراد إلى المجموعة.

سيساعد مثل هذا القاموس الأجانب على معرفة وفهم ردود أفعال الفرنسيين ومواقفهم وسلوكياتهم بشكلٍ أفضل من خلال تزويدهم بوصفٍ كاملٍ قدر الإمكان للنواحي الثقافية الشائعة، التي لا تغطيها قواميس اللغة.

إنّ معنى كل كلمة يقع، بالإضافة إلى المستوى الدلالي، أيضاً على المستوى البراغماتي، أي الشحنة الثقافية المشتركة، غير المرئي، والمخفي في دلالاتٍ يصعب تفسيرها، وبالتالي يصعب أيضاً إدراجها في التعلم المؤسسي الذي يتمثل دوره على وجه التحديد في التفسير.

فيما يلي مثالين عن الكلمات ذات الشحنة الثقافية المشتركة التي نجدها في مفردات منهاج Alter Ego 1 (2006) لتعليم اللغة الفرنسية، كما نجدها في قاموس Le Robert pour tous (1994). لم يكن اختيارنا لهذا القاموس عشوائياً، فهو من القواميس التعليمية المخصصة لمتعلمي اللغة الفرنسية (المراهقين أو البالغين). وتتجلى الوظيفة الثقافية بقوةٍ فيه من خلال الأمثلة الثقافية وعناوين الأعمال والاقتراسات.

الحلوى *Dessert* - 1. آخر طبق من الوجبة (يحتوي الجبن). "حلوى من دون جبن هي بمثابة فتاة جميلة ينقصها عين" (بريا سافاران *Brillat Savarin*) 2. أطباق حلوة وفواكه ومعجنات تقدم بعد الجبن (في فرنسا). حرمان الطفل من الحلوى. . وقت الحلوى *Moment du dessert*. إنهم في نهاية الوجبة *Ils en sont au dessert*.

فكيف يمكن لأجنبي أن يفهم علاقة الحلوى بوجبة الغداء على سبيل المثال؟ كيف له أن يفهم عبارة لقد وصل على وقت الحلوى أي في نهاية الوجبة؟

يوم الاثنين *Lundi* - أول يوم من الأسبوع الذي يلي الأحد. المتجر مغلق يوم الاثنين، كل يوم اثنين. إثنين الفصح، إثنين العنصرة. هو اليوم التالي لهذه الأعياد.

هذه مجرد أمثلة لما يمكن أن يقدمه لنا القاموس فيما يتعلّق بالمضمون الثقافي لبعض الكلمات التي نجدها خلال تعلم اللغة الفرنسية. ومن وجهة النظر هذه، يعد Le Robert pour tous قاموساً تعليمياً حقيقياً يكمل العمل القائم على الكتاب. ولذلك يجب إدراج هذا النوع من القواميس بشكلٍ وثيقٍ في النهج التعليمي ليس فقط للأهداف اللغوية ولكن أيضاً للأهداف الثقافية.

لذلك اختار R. Galisson تناول دراسة هذه الثقافة المشتركة من خلال وضع قاموسٍ، حيث سيتم التركيز فقط على الكلمات المشحونة ثقافياً التي تشاركها نسبة لا تقل عن 80٪ من المتحدثين. لن يعتمد هذا القاموس على الموسوعية، بل سيتجول بين اللغة والثقافة. وللقيام بذلك، انطلق غاليسون من المبدأ القائل بأن كل الكلمات ثقافية، ولكن بعضها أكثر ثقافيةً من غيرها¹⁴.

يشير قاموس *Petit Robert*، على سبيل المثال، إلى أنّ الجزرة هي:

- "نبات نباتي من الفصيلة المظلية، ذو جذر رئيسي";

- "جذر مخروطي، غني بالسكر"; وأنّ هناك "جزر علفي أبيض أو أصفر أو أحمر".

بينما يشير قاموس *Petit Larousse Illustré* إلى أنّ الجزرة هي:

- نبات ثنائي الحول يزرع لجذره الرئيسي، وهو صالح للأكل،

- جذر الجزر، ويؤكل نيئاً أو مطبوخاً.

- مضع ورق التبغ على شكل جزرة.

- عينة أرضية أسطوانية مأخوذة من العمق باستخدام جهاز أخذ العينات الأساسي. وفي المقابل لم يتطرق القاموسان إلى أيّ جوانب ثقافيةٍ مستوحاةٍ من الجزيرة. ولهذا السبب يجب على القاموس الذي يُعنى بالمفردات المشبعة ثقافياً، بالإضافة إلى ذلك، أن يُطلع مستخدمه على فضائل الجزيرة، يقول غاليسون:

- الجزر يجعلك لطيفاً ومحبوياً،
- يسمح لك بالرؤية ليلاً (نيكتالوب)
- يجعل الفخذ مشدوداً.

مثال آخر استشهد به غاليسون¹⁵ يوضّح جيداً هذه الكلمات ذات الشحنة الثقافية المشتركة. فقد تناول الحديث عن اللوز المحلّى /الملبّس/، في قاموس *Petit Robert* كما في قاموس *Petit Larousse Illustré*، حيث نجد في هذين القاموسين: اللوز المحلّى هو "حلوى مصنوعة من اللوز، أو حلوى اللوز، أو البندق، وما إلى ذلك". مغطاة بالسكر المتصلب؛" وأنّ هناك "مسكراً حيث يتم استبدال اللوز بقطرة من المسكّرات". من ناحيةٍ أخرى، لم يُذكر أنّ اللوز المحلّى يرافق دائماً مراسم المعمودية، وأنه يتمّ تقديمه من حيث المبدأ من قبل الأب الروحي للمولود الجديد، وأنّ اختيار لونه يخضع لقواعد ملحوظة على نطاقٍ واسعٍ، وهي أنّ اللوز المحلّى بالسكر الوردي هو مخصصة للأطفال الإناث، وأخرى زرقاء للأطفال الذكور، وأخرى بيضاء مناسبة للفتيات والفتيان. جميع الفرنسيين يعرفون ذلك، على الرغم من أنهم لا يشعرون بأنهم تعلموه في المدارس. ولكنّ كيف يمكن للأجنبي أن يعرف ذلك أيضاً إذا كان اللوز المحلّى غير موجودٍ في بلده، أو إذا كان لا يدعو إلى نفس الرمزية إذا لم يتعلمه قط، وإذا كانت القواميس، الملاذ الأخير، تختار الصمتَ حول هذا النوع من المعلومات الثقافية واللغوية؟

الألوان لها دلالات ورمزيةٌ تختلف حسب الثقافات، فإنّ كان اللون الأبيض يرمز إلى الفرح والطقوس المرتبطة بالأعراس في بعض البلدان، فإنه يرمز إلى الحداد والحزن في الثقافة الهندية حيث ترتديه السيدة الهندية بعد وفاة زوجها حتى وفاتها.

هذه الكلمات، الأكثر ثقافية من غيرها، تخفي شيئاً "غير مذكور" ولا تتحدث عنه قواميس اللغة. هذه الشحنة الثقافية تضفي على بعض الكلمات مضامين ثقافيةً تعمل كعلامات اندماجٍ وانتماءٍ، تساعد المتكلم على الاندماج إذا كان يفهم، في الفئة الاجتماعية، وإقصائه إذا لم يفهم¹⁶. لقد اخترقت هذه التعبيرات الذاكرة الجماعية بشكلٍ كبيرٍ...

لنأخذ المثال التالي: Fort comme un Turc ! ... كيف يمكن فهم هذه العبارة خصوصاً أنه يوجد باللغة الفرنسية تعبير آخر للدلالة على قوة الشخص من خلال الاستعارة التالية: "... قويٌّ كالثور Fort comme un bœuf"؟ إنّ عبارة Fort comme un Turc قد قالها الملك فرانسيس الأول، الذي كان يرتدي الدرع التركي الذي قدمه له السلطان سليمان لختم تحالفهما عام 1536، قائلاً: ها أنا الآن قوي كتركي! فإنّ لم نكنّ نعلم الأسباب التي جعلت هذا الملك يقول هذه العبارة فإننا لن نفهم مغزاها.

5. قاموس الأسماء التجارية الشائعة:

يذهب R. Galisson إلى أبعد من ذلك، من خلال قاموس الأسماء التجارية الشائعة¹⁷ الذي قام بوضعه مع J.-C André. هذا القاموس غني جداً بالأدوات التعليمية، على عكس القواميس العادية. الأسماء التجارية تميزنا من خلال وضع اسم على ما نستهلكه؛ هذه هي الفرضية الأولية لغاليسون الذي يشرح في مقدمة قاموسه كيف توصل إلى فكرة هذا البحث. "بقرتان ضاحكتان وجرعة من "بادوا" وننطلق مرة أخرى!" *Deux 'Vache qui rit', un coup de 'Badoit' et ça repart!* البقرة الضاحكة هو اسم تجاري لنوع من الألبان الفرنسية (موجود في سوريا أيضاً) والبادوا هو اسم تجاري لنوع من المياه الغازية/ هذه الجملة الصغيرة، التي كانت مفهومة تماماً بالنسبة للمتحدث الأصلي، ولكنها مهمة بشكل مقلق بالنسبة لمعلم اللغة الفرنسية الأجنبي، كانت بمثابة حافز لوضع هذا القاموس. وهذا مثال على هذه الأسماء التجارية التي أصبحت كلمات متداولة في الحياة اليومية، وتعمل كعلامات اندماج وكدليل على الانتماء بين المتكلمين، ولكنها أيضاً دليل على اندماج المتكلم أو استبعاده إذا لم يفهم. في الواقع تشكل الأسماء التجارية نوعاً من المعلومات لا توجد في قواميس اللغات الموسوعية.

يسمح هذا القاموس بتوفير المعلومات التالية لكل كلمة رئيسية:

- **التعريف** أو بالأحرى خصائص معينة للشركة أو المنتج. KILOUTOU: الاسم التجاري واسم شركة متخصصة في تأجير مجموعة واسعة من المعدات والأدوات؛
- **توضيح "تاريخي ثقافي"** قادر على تحويل هذا الاسم التجاري أو ذلك، الذي يبدو مبتدلاً للوهلة الأولى، إلى مؤشر ثقافي... مع أسماء تجارية على غرار KIT ET KAT (تهجئة مختلفة لـ KIT-CAT)، RON-RON (صوت تصدره القطة يدل على رضاها)،... وهذا يُشير إلى واقع اجتماعي على قدر كبير من الأهمية - شغف الفرنسيين، جميع الطبقات مجتمعة، للقطط والكلاب - إضافة إلى توضيح مفصل، أو ملاحظة مسلية. المنتجات الغذائية منخفضة الدهون الحيوانية هي أيضاً ذرائع للتعليقات أو التلميحات: * حول أوهام الشعب الفرنسي فيما يتعلق بالصحة (الحذر من الدهون): * على العبادة التي يخصصونها لأجسادهم والتي لا تتناسب مع ميلهم إلى الطعام اللذيذ والخمر...؛ ماك دونالد: سلسلة مطاعم ("Macdo") المتخصصة بالوجبات السريعة لا يحظى وجودها بالتقدير دائماً في بلد يتمتع بفن الطهي التقليدي مثل فرنسا؛
- **الاستخدام** المميز للاسم التجاري، والنصوص الإعلانية، والشعارات، والنصوص الأساسية، وهذا يعادل اقتباسات المؤلفين في قواميس اللغة. وبمجرد أن تُدرج في الذاكرة الجماعية (مثل الأمثال والأقوال والتعبيرات الثابتة والجمل التاريخية والخرافات وعناوين الأفلام والروايات والمسرحيات وغيرها)، فإنها تصبح متاحة للجميع.
- **النطق** إذا كان فيه مشاكل (الأسماء الإنجليزية مثلاً).

فكّر R. Galisson أيضاً في استخدام هذا القاموس لأهدافٍ تعليميةٍ. والأهم من كل ذلك هو أنه قاموسٌ يُعنى بالمفردات الثقافية، وهذا هو العنصر الذي يتم إهماله بشكلٍ عام في القواميس العادية الموسوعية. مثالٌ آخر ...

إنّ عدد الأسماء التجارية للخبز يُعد مؤشراً ثقافياً غنياً. ولفهم ذلك، يروي غاليسون وأندريه J.-C. André طرفةً قصيرةً: كان للجنرال ديغول هذه الخاطرة: "لا يمكننا أن نحكم بلداً لديه أكثر من 300 اسم تجاري من الخبز!"¹⁸. ووراء الفكاهة (القاسية) والمرارة التي يشعر بها هذا الرجل السياسي في مواجهة تردّد مواطنيه ومقاومتهم، هناك ملاحظة لحقيقة تتوافق تماماً مع هدف هذا القاموس. فالفرنسيون حساسون للغاية تجاه ملذات المائدة، والخبز، والنبيد، لدرجة أنه من الصعب أن يخضعوا لأيّ حاكم أو يتنازلوا. بمعنى آخر، يتجلى سلوكهم في تعدد أسماء المنتجات التي يستهلكونها والتي تعطي فكرة عن عقليّتهم... ثقافياً. يشير شعار جبن BOURSIN "الخبز والنبيد و BOURSIN" Du pain, du vin et du Boursin إلى الصورة النمطية التي يعززها رأي الجنرال والتي تلخص أساسيات الحياة الفرنسية.

تقدم الأسماء التجارية الشائعة قيماً معينة للمجتمع الفرنسي. مع مراعاة حقيقة أنّ الصورة العامة للأسماء التجارية الخاصة ببلدٍ ما ولكلّ علامة تجارية معينة تختلف كثيراً عند التصدير /البقرة الضاحكة على سبيل المثال في سوريا/.

مثال آخر¹⁹: بطاقة أميركان إكسبريس American Express هي بطاقةٌ متاحةٌ للجميع في الولايات المتحدة، في حين أنّ لها صورةً نخبويةً في العقلية الفرنسية. من ناحيةٍ أخرى، ماك دونالد Mac Donald، وهو منتجٌ أمريكي، لا يحظى بتقديرٍ كبيرٍ من قبل غالبية البالغين الفرنسيين، مقارنةً بالمطاعم المحلية. تنتهي الأسماء التجارية إلى "التراث الثقافي المشترك"، وهي مؤشرٌ ثقافيٌّ قيّمٌ. أثناء العمل على تطوير القاموس، أدرك غاليسون أنه أصبح تدريجياً "كتاباً مفتوحاً عن الثقافة السلوكية للفرنسيين، ثقافةٌ مكونةٌ من هذه الأشياء غير المهمة ظاهرياً أو حقاً والتي يتم تناولها واحدة تلو الأخرى، ولكنها تعكس الحياة اليومية للسكان الأصليين. ولكن لماذا يجب إدراج مثل هذه العبارات في دروس اللغة؟ من الواضح أنّ المنفعة الأولى تأتي من الارتباط الوثيق بين اللغة والثقافة، ولا يمكن فصلهما، وتكامل الثقافة مع اللغة في التدريس (الهدف الأسمى من التعليم اليوم) ليس مستحيلاً.

6. الخاتمة:

وفي الختام، إنّ العلاقة بين مفردات اللغة والثقافة لا لبس فيها ولا يمكن الطعن فيها. وللوصول إلى الثقافة، فإن أفضل وسيلة هي اللغة، لأنها في الوقت نفسه ناقل ونتاج ومنتج لجميع الثقافات. وفي هذا السياق، يكون العمل على المفردات أمراً ضرورياً جداً يهدف إلى تشجيع المعلمين على تقديم الثقافة اليومية قبل الثقافة العلمية بهدف رفع مستوى الوعي بغياب الحدود الواضحة بين اللغة والثقافة.

الهوامش

- ¹ Galisson R., « Culture et lexiculture partagées : les mots comme lieux d'observation des faits culturels », in *Etudes de linguistique appliquée*, N°69, 1988, p. 74.
- ² Coïaniz A., *Faute et itinéraires d'apprentissage en classe de français langue étrangère*, Montpellier, Université Paul Valéry, 1996, pp. 138-139.
- ³ Galisson R., « Accéder à la culture partagée par l'entremise des mots à C.C.P. », in *Etudes de linguistique appliquée*, N°67, 1987, p. 127.
- ⁴ Gohard-Radenkovic A., *Communiquer en langue étrangère*, P. Lang, 1999, p. 106.
- ⁵ Zarate G., *Représentations de l'étranger et didactique des langues*, Paris, Didier, 1995, p. 27.
- ⁶ Galisson R., « Accéder à la culture partagée par l'entremise des mots à C.C.P. », in *Etudes de linguistique appliquée*, N°67, 1987, p. 128.
- ⁷ Beacco J.-C., « Civilisation et discours sociaux en classe de langue », in *Le français dans le monde*, N°257, 1993, p. 46.
- ⁸ Galisson R., « Les palimpsestes verbaux : des actualiseurs et révélateur culturels remarquables pour publics étrangers », in *Études de linguistique appliquée*, N°97, 1995, p. 104.
- ⁹ Beacco J.-C., *Les dimensions culturelles des enseignements de langue*, Paris, Hachette, 2000, p. 139.
- ¹⁰ Carlo M. de, « Lexique, culture et motivation à l'école », in *Études de linguistique appliquée*, N°97, 1995, p. 76.
- ¹¹ Galisson R., *De la langue à la culture par les mots*, Paris, Clé International, 1991, p. 3.
- ¹² Galisson R., « Pour un dictionnaire des mots de la culture populaire », in *Le français dans le monde*, N°188, 1984, p. 59.
- ¹³ Galisson R., « Pour un dictionnaire des mots de la culture populaire », in *Le français dans le monde*, N°188, 1984, p. 60.
- ¹⁴ Galisson R., « Accéder à la culture partagée par l'entremise des mots à C.C.P. », in *Etudes de linguistique appliquée*, N°67, 1987, p. 129.
- ¹⁵ Galisson R., *De la langue à la culture par les mots*, Paris, Clé International, 1991, p. 122.
- ¹⁶ Galisson R., *De la langue à la culture par les mots*, Paris, Clé International, 1991, p. 119.
- ¹⁷ Galisson R. et André J.-C., *Dictionnaire de noms de marques courants*, Paris, Didier Erudition, 1998, pp. 33-37.
- ¹⁸ Galisson R. et André J.-C., *Dictionnaire de noms de marques courants*, Paris, Didier Erudition, 1998, pp. 43-44.
- ¹⁹ Galisson R. et André J.-C., *Dictionnaire de noms de marques courants*, Paris, Didier Erudition, 1998, p. 278.

المصادر والمراجع

1. Beacco J.-C., *Les dimensions culturelles des enseignements de langue*, Paris, Hachette, 2000.
2. Beacco J.-C., « Civilisation et discours sociaux en classe de langue », in *Le français dans le monde*, N°257, 1993.
3. Carlo M. de, « Lexique, culture et motivation à l'école », in *Études de linguistique appliquée*, N°97, 1995.
4. Coïaniz A., *Faute et itinéraires d'apprentissage en classe de français langue étrangère*, Montpellier, Université Paul Valéry, 1996.
5. Galisson R. et André J.-C., *Dictionnaire de noms de marques courants*, Paris, Didier Erudition, 1998.
6. Galisson R., « Les palimpsestes verbaux : des actualiseurs et révélateur culturels remarquables pour publics étrangers », in *Études de linguistique appliquée*, N°97, 1995.
7. Galisson R., *De la langue à la culture par les mots*, Paris, Clé International, 1991.

-
8. Galisson R., « Culture et lexiculture partagées : les mots comme lieux d'observation des faits culturels », in *Etudes de linguistique appliquée*, N°69, 1988.
 9. Galisson R., « Accéder à la culture partagée par l'entremise des mots à C.C.P. », in *Etudes de linguistique appliquée*, N°67, 1987.
 10. Galisson R., « Pour un dictionnaire des mots de la culture populaire », in *Le français dans le monde*, N°188, 1984.
 11. Gohard-Radenkovic A., *Communiquer en langue étrangère*, P. Lang, 1999.
 12. Matoré G., *La méthode en lexicologie*, Paris, Librairie Marcel Didier, 1953.
 13. Zarate G., *Représentations de l'étranger et didactique des langues*, Paris, Didier, 1995.
-